

مناحات.. وعويل

في الأسبوع الأخير، من الشهر الأخير، من كل عام ميلادي، ينصب الكتاب سرادقات العزاء، ويطلقون العنان لمناحات توديعية لراحل سوف يتكرر، ولكنه لن يعود.

تتمادى حفلات التأبين، للعام المنطوي على أفول، وهو يخلف وراءه تركة ثقيلة من الجراح التخينة والأيام التكل.. هكذا كان المشهد منذ ألف عام، وسوف يبقى إلى أعوام خارج الإحصاء، على ما يعبر المحبّرون السوداويون. من بين كل الشعوب منح العرب الزمن اسم الدهر، وهو اسم يحمل في طياته صفاته، وامتلات مؤلفاتهم بتأويلات فلسفية وفكرية موحية، لكن تلك التأويلات أطبقت عليهم، فبدوا مثل محارب أخير، وحيد، يدرك أن مصيره الأسر أو الموت. بهذه الروح، الروح الهجائية، يوغل المثقفون العرب في التعامل مع فكرة الزمن. فهو بالنسبة إليهم يتوقف عند صيغة الماضي فحسب، عند العام الذي يشيعون جثته غير مأسوف عليها. هو الماضي الذي يستحق اللعنات، وإعلان التبرؤ من أنقاله وتبعاته، والانسلاخ عن مخزونه ودروسه. أما صيغتا المضارع والمستقبل، في المفهوم الزمني، فهما في علم الغيب، كل اقتراب منهما بدعة تؤدي إلى الضلال.

مشكلة دائمة، يعيشها العرب، نخباً وعوام، مع الزمن، بصيغه الثلاث، فيبنون جدراناً يتسورون خلفها، وكأنهم بذلك تجسيد واقعي لفكرة سوربالية: العيش خارج الزمن. منذ قدماء الفلاسفة اليونان، أرسطو وهيراقليطس وأفلاطون، أخذ الزمن بعداً فيزيائياً، وليس ميتافيزيقياً. هو عامل يتحد أو يتضاد مع عوامل التطور. حتى النقّاد الغربيون المحدثون لفكرة الزمن، من أمثال نيوتن، وكانت، وهايدجر، وپزغسون، وجان بياجيه، وغاستون باشلار، تعاملوا مع المسألة من منطلقات واقعية، ومن خلال محاولة الإجابة عن السؤال: ما هي القيمة المضافة لعامل الزمن؟

الروائي الفرنسي مارسيل بروست، قدم رؤية خارقة لهذا المفهوم، في سلسلته الروائية «البحث عن الزمن المفقود»، يجمل فيها نظرتة إلى العالم عبر تفتيت الزمن، «فالحياة في مجراها ليست إلا زمناً مفقوداً وأوهاماً زائلة، والذاكرة والفن هما السبيل الوحيد لاستعادة هذا الزمن المفقود وتحويل الأوهام إلى أشكال ملموسة من الجمال الأبدى» كما يقول.

معادلة بروست تلك، تعامل معها الكاتب الإنجليزي هيربرت جورج ويلز بطريقة خيالية في روايته «آلة الزمن» التي صدرت سنة 1895، عن عالم انتقل إلى المستقبل البعيد (حوالي 802.701 بعد الميلاد) ووجد كيف أن مستقبل البشرية مظلم، حيث إنه من خلال المسافة الطبقية بين الأغنياء والفقراء، سيظهر جنسان متقاتلان من البشر، كل جنس أحفاد لمن سبقوه. بين معادلة بروست المشرقة وخيال ويلز المظلم، يطلق العرب، خصوصاً المثقفين منهم، العنان لأصواتهم وهي تندب ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.. لا يعينهم البحث عن الزمن المفقود، ويعفون أنفسهم من مهمة ركوب «آلة الزمن» ارتقاء نحو المستقبل لاستكشافه، أو ارتكاساً نحو الماضي لاستلهامه.. فالوقت عندهم مرصود من أجل مهمة وحيدة هي العويل.. الثقافي.

عادل علي

